موضعة المحكي في قصة "الدانوب الرمادي" لغادة السمان

د. سعاد عون
جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)

الملخص :

لايعتبر الفضاء في الكتابة الجديدة ، مجرد قطعة ديكور جامدة يؤثث بها السارد محكيه ؛ لأنه يعد من بين المكونات الجوهرية في السرد ، نظرا لما يتسم به من طابع إشكالي؛ فهو الذي يضفي ذلك البعد الدرامي للعمل القصصي ، أو مايسميه "شارل غريفل "CHarles Grivel" بالموضعة .بهذا المعنى يشتغل الفضاء عند "غادة السمان" في قصة "الدانوب الرمادي" وهذا ماسنعاينه بجلاء في هذا المقال .

Résumé:

L'espace dans le nouveau roman, n'est pas seulement un simple décor immobile dans lequel le narrateur meuble son récit narratif.

Mais, il est l'une des composantes fondamentales de la narration .

En raison de sa nature problématique, l'espace,c'est lui qui donne la dimension dramatique de l'oeuvre de fiction, ce qui appelle "Charles Grivel" la spacialisation .Dans ce sens fonctionne l'espace chez "Ghada Samman" dans son roman "Le Gris Danube" et celà que nous allons l'expertise clairement .

بات من غير الوجيه أن نعتبر الفضاء في كتابات الحساسية الجديدة معطى ناجزا ؛ حيث أضحى من بين إواليات الصنعة القصصية، يلعب فيها دورا صميميا بامتياز، وذلك من خلال ماضطلع به من مهام يؤديها حين يشتغل كمكون بؤري في حقل المحكي، ليؤسس للمعنى وتحولاته ويصوغ تصريفاته المتجلية في فعل القراءة .

أدمنت قراءة "غادة السمان" منذ نعومة أظفاري ، وهي ممثلة أدب "الأظافر الطويلة" بامتياز، وكنت أستمتع بهذا الأدب الأنثوي الجارح؛ فكانت أخيلتها الجامحة تدهسني فترديني صريعة أسلوبها الفاتن .. وجسد لغتها الرشيق، الخالي من الترهلات اللفظية؛ إذ ذاك أغيب عنها؛ ولا أحضر؛ إلا حين ينجلي غبار مداليلها الذي لايلبث أن يثير زوبعة داخل فنجان النص ...وأنا أقرأه...فعرافة كنت أجلس إليه بتوجس، أتملى برعب شديد تهويماته ووجهة خطوطه وترسبات شفراته الغامضة التي وقف قلمي عاجزا عييًّا أمام سلطانها أكثر من مرة، إذ« لاشيء يقول لأول وهلة، أي عند القراءة الأولى »[1] ، لكنه قرر هذه المرة أن يناوش أحد نصوصها، إذ وقع بين يدي كتاب " رحيل المرافئ القديمة " * وهو أضمومة تحوي ست قصص؛ قرأتها كلها، لكن القصة الأولى " **الدانوب الرمادي**" كانت نسيج وحدها من حيث منطق السرد، حيث إني تلقيتها بتأثر شديد؛ لأنها آلمتني وظلت تقشر جرحا بنفسي، وتفتح أقواسا للمساءلة، وبقيت أعاني مراوغة دلالات هذا النص وازورارها، لكني حين جلست إليه كاشفني بأن كاتمني!!، وهذا ما زادني إليه زلفى واقترابا، لأنه بحق يشبه الأهرام القديمة؛ فإن له أكثر من باب، في كل قراءة له أهوي في سرداب، ويخيل إلـيَّ أن فوانيسي انطفأت، لكنني أبدا لم أكن أنثني، بل كنت أضيء فوانيس فضولي من جديد؛ علّي أعثر على جوهر النص، فكان الجوهر الحكائي مندسا بقوة طي الفضاء؛ حيث راح ينخرط في اللعبة السردية' ويفرض حضوره البؤري بداية من العنوان، فيغدو حقلا تدليليا خصبا، وفضاء تخييليا بامتياز؛ حين تماهى مع الحدث والرؤية فماد بدلالات شتى ....

فكيف يشتغل الفضاء كسمة موضعية أسسها اقتصاد السرد ؟.

كيف يدلي بدلوه بين الدلاء الرافدة لنهر الحكى؟.

كيف شيدت الكاتبة حضارة نصها على ضفاف نهر الدانوب ، بل كيف شيد القارئ ذلك ؟.

ذلك ما ستشتغل عليه هذا المقال؛ نزوعا منه إلى اشتراع أمداء أخرى لقراءة الفضاء ، قراءة لاتكترث لإكراهات التخوم التي فرضتها أمكنة الواقع .

تفننت الكاتبة في موضعة محكي "الدانوب الرمادي " ؛ وتعني الموضعة عند" شارل غريفل" CHarles Grivel « إضفاء الدرامية على الفضاء ، فالمكان الذي يجعل لرواية من الروايات يشد الاهتمام إلى الدراما ، وإلـــى مايتغــذى عليه ذلك الاهتمام، فالأمكنة مقترنة بعناصر المتن الأخرى، تخلق الدراما ولا تبدي غيرها، بالإفراط في عرض الحدث المحرك لتلك الدراما مما يجعله يستأثر،دون غيره ،بالاهتمام »[2]؛ لذا نستنتج أن الحدث هو ربيب المكان ، يلازمـــه ولا يبارحه ، فهو الدينامو الذي يدفع به قدما لاعتلاء منصة الأداء الدرامي بامتياز؛ ليؤسس أحد أعمدة المحكي التي لاينبني أي فن سردي دونها، لذا « فالمحكي يتأسس فيما يتموضع »[3] ؛فالموضعة سمة لامناص منها في السرد .

في قصة " الدانوب الرمادي " يعثر القارىء على المكان متشذرا في كامل أرجاء النص ولا يملك إلا أن ينصت إلى أصوات الأمكنة و خطاباتها ليستشفر دلالاتها؛ ذلك « ما يسميه "يوري لوتمان "بـــ (بوليفونية الفضاءات) حيث نجد الفضاء منثورا بأساليب وأشكال متعددة تتناسب وطبيعة الأحداث والشخصيات الروائية»[4]، فالمدن الوارد ذكرهـــا فـــي القصة ، "فيينا، باريس،دمشق، بيروت" كلها مدن عريقة أسهمت في تفضيء المحكي، فنتوقف عند "فيينا" بل "فيينا" هي التي تستوقفنا، لأن البطلة وقفت عندها مليا ،وفيها نزفت جراحها وذاكرتها؛ لأنها اختارتها موطنا لغربتهـــا ونســـيانها؛ حيث تصور لنا القصة ذاتا منفصلة عن موضوعها. البطلة U الوطن «...اخترت المجيء إلى فيينا بالذات لأننـــي لا أعرف لغة أهلها ... »[5] ، فكانت البطلة بذلك تسقط حالتها النفسية على الفضاء، فتمظهر الفضاء حزينا هرمـــا أســـيانا «فيينا...عتيقة حزينة مثلي .. فيينا الإمبراطورية الهرمة كقلبي ، فيينا المتآكلة كأيامي »[6] .

وهنا ندرك « أن الأمكنة هي نحن ، وهي جزء من تاريخنا بل هي التاريخ كله »[7]، فتاريخ هذه المدينة يشـــاكل تاريخ البطلة حذو النعل بالنعل؛ في كآبتها وحزنها وسقوطها ...وعبثا يحاول السكان ترميم بناياتها المتداعية للاحتفـــاظ بنكهتها القديمة ؛كي تظل حاضرة دوما، حيث إن« إسقاط الحالة الفكرية أو النفسية للأبطال على المحيط الذي يوجدون فيه يجعل للمكان دلالة تفوق دوره المألوف كديكور أو كوسط يؤطر الأحداث إنه يتحول في هذه الحالة إلـــى محـــاور حقيقي ويقتحم عالم السرد محررا نفسه هكذا من أغلال الوصف »[8] ،إذ نجد أن فضاء فيينا قد احتقب مشـــاهد مؤلمـــة مالبثت تستفز ذاكرة البطلة ، وهنا تتواطأ الأحداث مع الإحداثيات؛ فيتولد الصراع، فالدراما مخبأة في جيوب الأمكنـــة، وعبثا تحاول البطلة ترميم انكساراتها وتضعضعات ذاكرتها، فجو "فيينا" الهادئ الملهم؛ هو الذي استدعاها لتمضي وقتا فيها؛ علها تنسى وتسلى لكن هيهات ... « شيء ما في فيينا فجر جرحي منذ لحظة وصولنا، كل ما فـــي فيينـــا فجـــر جرحي.أم تراه لغم الجرح قد نضج »[9]، فإذا تأملنا في هذا المجتزأ النصي؛ فالحقل الدلالي "للدم" [الدم المخثر، الجرح، لغم الجرح...]يشي بتورم أنا البطلة، وتعطل وظيفتها كعامل في المحكي؛ فتبدو هذه الأنـــا المتورمـــة « علـــى ســـوية السرطان:وفرة هائلة في الخلايا والحجم،وفساد قاتل في الوظائف»[10]، لكن إذا كان النص جسما* في المفهوم البـــارتي؛ فإن تعطل عضو فيه؛ يفضي إلى نشاط تعويضي من لدن عضو آخر؛ وهنا يؤدي المكان دور البطولـــة فـــي الجســـم النصي؛ ويتحقق مايسمى بالموضعة؛ فلا يغرب عن ذهن القارىء أن المكان في أي نص سردي « كأية شخصية أخرى يجب أن يكون عاملا وفعالا، وبناء(...) وإلا أصبح كتلة شحمية لاتضيف إلى الرواية إلا الترهل، ومـــن هنـــا كـــــان المكان يلعب في بعض الروايات الرشيقة دور البطـــــولة، وليس عنصر بطالة »[11] ، وهنا يتأكد للقارىء أن الفضاء قد كف عن كونه معطى جاهزا ليغري القارىء باستشفار دلالاته .

من المطار إلى المدينة كان حقل القبور أول منظر مرت به البطلة، حيث ذكرها ذلك بالموت الجماعي للفدائيين رفقة أخيها، وحين كانت مرمية في بهو الفندق سمعت صدفة معزوفة "الدانوب الأزرق الجميل" لجوهـان ستراوس، الدانوب، هذا الفضاء الذي هجس النص بحضوره بداية من العنوان؛ وها هو يكتب النص، كما أحسن "شارل غريفـل" التعبير حين راح « يعلن بأن الفضاء الروائي هو الذي يكتب القصة قبل أن تسطرها يد المؤلف»[12] ، فالأمكنـة داخـل النص تحمل تاريخها الخاص وقصصها الخاصة .

إن عتبة العنوان « هذا المشهي »[13]؛ تعتبر يافطة مضيئة، تلفت الانتباه إلى نفسها وتشير ببنان خفي إلى العـالم الذي يشترعه النص المعنون؛ المفتوح على النص الكبير للواقع، للثقافة والإيدولوجيا...، وحريٌّ بالقارئ أن يشتغل على العنوان كنص مورفولوجي مصغر؛ يحتقب خطابا بوليفونيا دلاليا؛ يصدع بشعرية النص وفرادته. ففـي قصـة " الدانوب الرمادي " يستوقفنا العنوان، ويجعلنا نتريث كي نستحضر مكتسباتنا الثقافية فالدانوب" danube* "اسم نهر في جنوب شرق أوروبا، يمر عبر النمسا، هذا النهر الذي تبنينت على ضفافه حضارة المحكي، ولايخفى أن « اسم المكان يؤكد صحة المغامرة التي تجري فيه بضرب من الإنعكاس الكنائي الذي يمنع ارتياب القارئ فما دام المكان حقيقيا، فكل ما يتصل به ويدخل فيه فهو حقيقي لكن الاسم الذي يجعل للمكان يؤكد في الوقت نفسه، فرادة هذا المكان، ويضفي عليه طابع الدرامية، فباعتبار المكان مموضعا في غير موضع القارئ (...) فهو يبدو وعاء أو قالبا لحدث فريد وغير مألوف »[14]، وهنا يلتفت القارىء إلى قصدية الانتقاء الدقيق لاسم المكان من لدن القاصة ، كما يذكرنا هذا العنوان بمقطوعـة موسيقية لشتراوس تحمل اسم " الدانوب الأزرق الجميل " ** ، هذه المقطوعة التي كرست شعرية هـذا النهـر فـي المخيال الشعبي، فقد استعار الدانوب شعريته من اللغة؛ لأن السيمفونيات تعنون لغة ؛« والواقع أن الأشياء ليست شعرية تماما أصلا، ولكنها تكتسب شعريتها أكثر من خلال اللغة، (...) إن الأشياء تبقى في غالب الأحيان حيادية سواء كانـت جميلة أو قبيحة، مميزة أم عادية ولكنها تخرج من حيادها إذا ما ارتبطت باللغة أو بأشياء أخرى بعلاقة ما »[15]، فـالنهر هنا خرج عن حياديته حين ارتبط بالمقطوعة الموسيقية، وهنا يكون المكان الموسيقى التصويرية للقصة؛ فهو« ضـامن الوحدة الهرمونية للسرد »[16]، والضابط لإيقاع النص، فبارتباط الدانوب بسيمفونية " شتراوس" ارتسم لونه الأزرق فـي خيال العامة؛ وهذا يشي به سؤال سائق التاكسي الموجه للبطلة : «هل كنت تضنينه أزرقا ... جميع السياح الذين آتـي بهم إلى هنا يشعرون بالخيبة لأن الدانوب رمادي وليس أزرقا ... ولأنه مجرد نهر عادي كبقية الأنهار ... »[17]، وهنـا يرصد القارىء خيبة البطلة، وخيبة السياح تضاف إليها خيبة القارئ أمام العنوان؛ حين خرق لون الدانوب أفق توقعه، وشوّش عليه مقروئية النص، واختلط عليه دانوب الواقع ودانوب المتخيل إذ « إن العنوان يجب أن يشوش على الأفكار لا أن يحولها إلى قوالب مسكوكة »[18] وهنا يمارس العنوان لعبته في النص .

ارتبط الدانوب الأزرق في خيال البطلة بأحداث مفصلية في حياتها، فكان المكان المتجمر* الذي ظل متوهجا في لاوعي البطلة ، وكان القادح للتذكر .

1ــ«أول مرة اكتشفت فيها الرجل عبر جسد حازم كانت ألحانها تصدح» [19]ـــ◄ حدث اكتشاف الرجل(الحب).

2ــ وحين كانت تبث الاعلانات كانت ألحانها تصدح أيضا«وأنها ليلتها كانت المعزوفة الجنائزيـة لأخـي ورفاقـه»[20] حدث الموت. فموت الأخ في القصة كان مرتبطا بسماع البطلة للمعزوفة ؛لذا فإن «هذا الارتباط بين الفضاء القصصي والحدث هو الذي يعطي للقصة تماسكها وانسجامها، ويقرر في الإتجاه الذي سيأخذه السرد لتشييد خطـابه وذلـك أن المكان هو أحد العوامل الأساسية التي يقوم عليها الحدث »[21] ،وهنا تنتصب أمامنا ثنائية ضدية "الحب"≠"الموت" التـي يستدعيها سماع المقطوعة والتذكر، المقطوعة =الحب=الموت.

« معزوفة (الدانوب الأزرق)هي عندي حفارة الذكريات»[22] ، فالمعزوفة كانت قطب الرحى الـذي دار حولـه مخزون ذاكرة البطلة، فالحفارة تكشف عن أنهار أعماقها الغائرة وتستحضرها إلى مجال وعيها، فيمثل الماضـي أمـام

عينيها جليا، فلا تستطيع دونه فكاكا؛ فيحدث الارتداد FLASH BACK « معزوفة الدانوب الأزرق ما يزال صوتها يعلو...كيف لم يخطر ببالي أن أذهب وأرى الدانوب مادمت هنا في فيينا ؟ فلأذهب الآن ...فلأذهب لأرى الدانوب الأزرق بعد أن حلمت به طويلا وتعبت من الأحلام»[23] وهنا تتحقق وظيفية الفضاء وموضعته، فهو المحفز لحركة البطلة ، بعد أن كانت مرمية في بهو الفندق معطلة الحواس ...استمعت صدفة إلى سمفونية "الدانوب الأزرق الجميل" حينها يتجلى للقارئ الحبك الحذق للأحداث، فبسرعة تستقل سيارة أجرة لرؤية دانوب أحلامها، وتصور لنا الكاتبة مشهد الدوار والإحباط الذي اعترى البطلة؛ حين أدركت أن الدانوب الذي رأته لا يحمل شكلا محاكاتيا للواقع، ولم يكن كما تمثلته، فلقد اصطدمت بالحقيقة حين غاب دانوب المتخيل الأزرق الذي عارضه دانوب الواقع "رمادي كامد، بني أسود، ملوث..." لأن « التعارضات القائمة بين الأمكنة (...) تمثل موجهات VECTEUR تشف عن متخيل الكاتب والقارئ معا »[24] ، فهذه التعارضات تغذي الفضاء وتسمه بالجدل والتوتر والدرامية، كما تثير مفهوم التقاطبات الذي أرساه "يوري لوتمان" في كتابه بنية المكان الفني[25] ، وفيه « أبرز المبدأ الأساسي الذي يقول بأن انبناء الفضاء الروائي إنما يتم عن طريقة التعارض »[26] ،ويمكننا رصد التقاطبات في الجدول الآتي؛ والتي نشتغل فيها على محكي اللون ودرجاته.

دانوب الحلم "المتخيل"ـــ الأزرق	دانوب الواقع – الرمادي-
"شديد الزرقة كسماء – مشرق – مضيء	– جسر إسمنتي، موحل، ملوث بمخلفات المعامل مثل نهر من الرماد، صدئ، كامد، بني أسود، مثل دم مختر، نهر النزف العتيق، نهر عادي كبقية الأنهار.

لقد سلبت الآلة النهر زرقته رمز عنفوانه وبراءته وبكارته الأولى ؛ فصيرته بركة آسنة من الدم المختر فكانت «آلهة من حديد»[27] ، صدمت متخيل القارئ ، و« شوشت ما للفضاء عنده من دور مرجعي لتفرض عليه مرجعية جديدة . فاعتلت صيغ تمثله لنفسه. واختلت صلته بالواقع الراهن فإذا هو موزع بين مكان قديم تستقر فيه المراجع التي يقرأ من خلالها ذاته(...) وبين مكان جديد هو مطرح وجوده (...) ولكن ذاته لا تجد لها فيه مستندا لها وهكذا أصبح لذاته مكان ولوجوده مكان»[28] ،وهنا يكون الفضاء تعبيرا كنائيا عن خيبة الإنسان واختلاله واعتلاله...ومن خلال وصف البطلة للدانوب؛ تبين للقارئ أن «الأوصاف تعلن عن الحدث، فهي تشتمل عليه بالقوة وتكون كأنها صورته المادية: إن الدراما تكون منكتبة على الوجوه وفي الأماكن قبل أن تكون مجرى مغامرة من المغامرات »[29] ، وفي خطاب البطلة لسائق التاكسي ترتفع لغة الحوار إلى ذروتها، حيث ترد عليه بالعربية ، وهنا يكمن الشرخ ؛ فبعد إحباط حلمها وخيبتها في رؤية دانوب أحلامها، تنفجر بلغتها الإحتجاجية الراقية ، ويفشل رهان الصمت ثانية ؛ لكن الأسف يتضاعف حين يدرك القارئ أن السائق لم يكن يستمع إليها؛ لأن حاجزا زجاجيا كان يفصل بينه وبينها، إضافة إلى أنه لايفهم العربية، ففي حضور الخطاب يغيب المتلقي ، إضافة إلى أن الرسالة اللغوية غير مفهومة فهي بالعربية ؛ مما يعزز القطيعة واللا تواصل للغة البطلة .

المرسل ...×...المتلقي

الرسالة غير مفهومة

↓

لا تواصل

لكن البطلة في القصة تسجل حضورا قويا أمام ذاتها ؛ بالرغم من أنها شربت ملء زجاجة من المسكر المغيب للذاكرة ، فرغبة الحضور جعلتها تبوح وتخرج كل ما في أعماقها من عذاب واحتجاج، وكل الأفكار المسكوت عنها، بالرغم من صدمتها في المكان واضطرابها الذي عكسه صراخها، لكننا «لا ندعي أن كل صدمة تسبب اضطرابا . قد

تحتاج الشعوب والمجتمعات أحيانا إلى صدمات إيجابية تدفعها إلى الأمام وتخلصها من الركود »[30]، وهذا مـــا يعكســه قولها « إن بلادي قطيع من الجلادين الأذكياء ... »[31] « حياتنا في بلادي هباء ضائع ماداموا يتآمرون عليها »[32].

لقد مثل الدانوب الأزرق القيم المغيبة التي آمنت بها البطلة؛ ولم تستطع الوصول الى مدارجها، فدونها عقبات وعقبات... عقبات الغدر والقمع والخيانة.. «إن كل دانوب أحببته لم يكن أزرقا»[33] وهاهي القيم التـــي أقامــت لهـــا صرحا في أعماقها تحترق وتستحيل إلى رماد «...مثل نهر من الرماد ..كأنه مملوء برماد الحب والرجـــل والـــوطن وحازم ... »[34] ، «لا أعتقد أن أحدا حزين من أجل نهركم ..كل منا حزين من أجل دانوبه الذي يظنه أزرق الضـــياء واكتشف أنه نهر من رماد كهذا النهر »[35] .

إن دانوب النص لا يتموضع في فيينا، بل يتموضع داخل روح كل إنسان منا، فلكل واحد منـــا دانوبـــه، ولكـــل قارىء دانوبه... إذ إن « ...الفضاء ليس سوى إطار روحي تشكل فيه الظواهر الاستعارية التـــي تتوزعهـــا الأســـماء والصفات»[36] ،إذ يستطيع القارىء أن يستكنه مضمر الذات من خلال علاقتها بالفضاء وتمثلها له وإحباطهـــا أمامـــه ، فشتان بين المكان العيني الذي يرشح عنه السطح الخارجي للنص، والمكان الروحي الذي يشي به عمق النص، والـــذي يختلق رابطا مشيميا بين عمق النص وعمق القارىء ؛ وهنا ينزاح دانوب الواقع عن دانوب المتخيـــل، وهكـــذا يشـــف الفضاء عما هو أبعد وأبعد...وإن كان النهر تعبيرا كنائيا عن العمر في قولة "هيراقليطس" التي نحفظها جميعا « إنك لا تعبر النهر مرتين » ؛ فقد استحال عمر البطلة إلى منفضة سجائر

«وفي مياهه الرمادية المطفأة نرى منفضة سجائرعمرنا المليئة برماد أيامنا وأوهامنا »[37] .

يتأزم الوضع في الأخير، ونحن على مشارف نهاية القصة، فبعد أن هجر "جورجي" البطلة تقرر مواصلة لجم ذاكرتها، بمشروع نسيان آخر، وهنا نلاحظ عبقرية الحبك، حيث يقف القارئ مذهولا أمام تمرس الكاتبة فـــي صـــنعة الصدفة المحبوكة؛ فقد خططت القاصة لهذه الصدفة التي سوف نكشفها لاحقا ، ووقفت غائبة وراء نول القص، لتنســـج الأحداث ببراعة ودقة ،وراحت تصنع الغيب والقدر بفنية لتلاقي بين فواز والبطلة ثانية، لكن اللقاء هنا يحققـــه غيـــاب "فواز" و "موته"، فلنكتشف ذلك معا.

جلست البطلة تنصب شباكها كعنكبوت خرائب محنكة تترصد فريستها الجديدة .....

« وجورجي قد رحل ـــــ لافرق ـــــ الفارق الوحيد هو أن شابـــــا وسيما قد احتل المقعد تجـــاهي ...وبيـــده صحيفة غرق بين سطورها قررت بخبرة ذواق الخمور هذا الرجل يستطيع تخديري لليلة على الأقل»[38]، وصدفة لمعت صورة فواز على الجريدة التي كان يحملها الشاب، تخطف الجريدة، تجري إلى غرفتها لتقرأ الخبر: « مصرع زعـــيم فدائي في بيروت بعد انفجار قنبلة ثبتت في درج مكتبه »[39] «لاحظت أن الإنفجار قذف بيده بعيدا عـــن جســـده »[40] ، وهنا تصل الأحداث ذروتها، ونلاحظ سرعة السرد المذهلة وتكثف لحظة التوتر الدرامي، كما نلمح سرعة تعرف البطلة على وجه فواز بالرغم من أنها كانت ثملة وغائبة، ولم تفكر في إمكانية العودة إلى الوطن أوعدمها، لكن وعيها الباطن كان متيقظا دوما، فهو دائم التوثب، فقط يترقب زلزالا آخر ليحركه وطبعا حدث ذلك، وتتأزم العقدة ويتغيـــر مجـــرى المتن الحكائي؛ حيث كانت إبرة المورفين الأخيرة معبأة بالصحو المفاجئ المؤدي إلى فضاء الحضور؛ « بقيـــت يـــدي ..أتأملها... »[41]،و تلمع هذه الجملة إلى استمرارية تملك وحضور اليد "أداة الكتابة " بعد أن كانت البطلة تتخبط في زمن الفقد وزمن الذاكرة المتورمة، وهنا تتذكر البطلة وصية والدها في آخر حشرجات موته : «اكتبي حذار من السقوط في الصمت وتذكري أن أوتار يدك لم تتقطع بعد »[42] وهنا تحضرنا قولة لـــ "أدونيس" يقر فيها بكرونوتوبية الكتابة؛ حيـــث يرى أن « الذاكرة تحفظ الكلام ، تحفظ لاغير،إنها كتابة في الزمن على الزمن ،الكتابة أشمل من الـــذاكرة ، وأنقـــى ، الكتابة مكان وزمان ، الذاكرة زمان»[43]، فالكتابة قيد للزمان والمكان معا .

في الأخير تنحل الثنائيات المتعارضة "الغياب"≠"الحضور"،"السكر≠الصحو"، ويكون الظفر للحضور و الصحو، فالمحكي الذي كانت بدايته ضياعا / انفصال الذات عن موضوعها بسبب رجل عميل "حازم" ، كانت نهايته اتصال الذات بموضوعها ، البطلة ∩ الفضاء(بيروت) بسبب رجل وطني "فواز" لاحظ سيميائية الاسم .

في المشهد الأخير من القصة ، تعود البطلة إلى فضاء وطنها « في الطائرة العائدة من فيينا إلى بيروت، أول طائرة ، كنت.

وإلى جانبي ، على زجاج النافذة الملاصقة لمقعدي لم تكن برك العيون الحمر الدامية الغاضبة تفتح بضراوة ...

لم تكن هناك ...

كانت هناك سماء زرقاء وصافية تمتد بلا نهاية ...مضيئة وزرقاء كالدانوب الأزرق العتيق ... »[44] ويعم فضاء الحضور والصحو الذي يجسده الفعل والاستمرارية، والخروج من فضاء الضياع والعبث إلى الفضاء القيمي الرسالي... فضاء الامتداد والبعث لزمن "فواز"ومكانه ... زمن ومكان الفداء، ويتحقق الخلاص بموته . وهاهي الكاتبة تصور البطلة مثل عنقاء بعثت من رماد نهر الواقع ، ويختفي الفجر المغبر ويختفي الزجاج الذي كان يقف بينها وبين الآخرين، وينفتح لتشترع أمداء شاسعة للخلاص، وتصف لنا البطلة بدله منظر سماء زرقاء، صافية ومضيئة ؛ كالدانوب الأزرق العتيق ويحضر اللون الأزرق للنهر الحامل لقيمة القديمة ، والذي تصب فيه دلالات الديمومة والجريان والحركية والحياة ، ويختفي اللون الرمادي، لون الواقع الملوث الآسن والراكد ،ويغيب دون رجعة ...ويحل محله الدانوب العتيق، دانوب شيده متخيل النص ومحموله فـ « الفضاء لايرى بالعينين وحسب وإنما هو وسط محمل بالقيم التي لاشأن لها بذكر الأشكال والألوان » [45] ، وهنا يؤدي الفضاء بلاغ موضَعته الخالد؛ ويقول مالا تقوله الشخوص؛ وتحقق الأنا معناها ووفاءها الأسطوري لمقولتها الحكيمة « لا سعادة خارج إطار الوطن والآخرين» [46]....

هي ليست الخاتمة...

فالنص مفتوح ...وللحديث عنه شجون، ويستحيل بمكان أن يحيط الدارس بكل فضاءاته في عجالة كهاته ، لذا اعتمدت القراءة على الحضور المهيمن، لفضاء النهر في القصة ، فكانت تستشرف موانىء جديدة ،... حين راحت حضارة النص تتبنين أمامها في أرقى طراز ... وكما تبنى الحضارات على ضفاف الأنهار...بنت الكاتبة نصها على ضفاف نهر الدانوب ، النهر الخالد الذي لعب دور البطولة ، فكان الفضاء المموضع بامتياز، فالأديب المتمرس يسعى دائما إلى التميز، فيخترق النمط السائد فهو يفجأ القارىء بأشكاله القصصية المستثناة، التى تحقق انبهاره فتجعله ينصت دوما لقصه، فيحقق الأديب إذ ذاك حضوره ... فيتصدر المجالس كجدة هرمة تروي قصصها التي لا تشيخ لأحفادها كي يناموا.... لكن "غادة السمان " تروي لنا قصتها ...."الدانوب الرمادي" لتوقظنا ... فلا ننام ... !

الهوامش:

[1] – جيرار جنيت، عودة الى خطاب الحكاية ، تر:محمد معتصم ، المركز الثقافي العربي،الـدار البيضـاء، المغـرب بيـروت، ط1،2000 ، ص :57.

* ــ غادة السمان، رحيل المرافئ القديمة ، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان ،ط2 ،1978.

[2] – شارل غريفل ، المكان في النص ، ضمن الفضاء الروائي ، مجموعة من المؤلفين، تر:عبد الرحيم حزل ، أفريقيا الشـرق ، المغرب ، دط ، 2000م ،ص :81.

[3] – المرجع نفسه، ص 74 .

[4] – شاكر النابلسي ، جماليات المكان في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 ، 1994، ص 288.

[5] – غادة السمان ، الدانوب الرمادي ، ضمن ،رحيل المرافئ القديمة ، ص 08 .

[6] – المصدر نفسه ، ص 24 .

[7]ــ غاستون باشلار، جماليات المكان ، تر: غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1984 ، ص :46

[8]– حميد لحمداني ، بنية الخطاب السردي من منظور النقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي، بيروت ، ط1 ، لبنـان 1991 ، ص 24 .

[9] – غادة السمان ،الدانوب الرمادي ، ص :27.

[10]– بسام حجازي ، مديح الخيانة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط1 ،1997 ، ص: 80.

*ـــ استعمل رولان بارت لفظة متن الجسم تأثرا منه بالعرب ، انظر : رولان بارت ، لذة النص ، تر : فؤاد صـفا والحسـين سحبان ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 2 ، 2001، ص 24 .

[11] – شاكر النابلسي ، جماليات المكان، ص 275 .

[12] – حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي (الفضاء الزمن الشخصية)المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنـان ، الـدار البيضـاء المغرب ،ط1، 1990، ص:30

[13] – رولان بارت ، التحليل النصي ، تطبيقات على نصوص من التوراة والانجيل والقصة القصيرة ، تروتقـديم ، عبـد الكبيـر الشرقاوي ، منشورات ، الزمن، د ط ، 2001، ص83 .

* ــ نهر الدانوب يلقب بنهر العواصم لكونه يمر في فيينا ،براتيسلافا،بوداباست وبلغرادن،والنهر يعبر او يحاذي 10دول اوروبية .والنهر يتكون من التقاء نهرين هما بريج وبريجش والذين ينبعان من الغابة السوداء في المانيا ويلتقيان على بعد عدة اميال عنـد مدينة دوناوشينغن الالمانية.ينظر : http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%

[14] – هنري ميتران ، المكان والمعنى، ضمن الفضاء الروائي ، تر:عبد الرحيم حزل، ص: 137،138.

**ــ يوهان شتراوس ولد في 25 أكتوبر 1825، في سانت أولريش بالقرب من فيينا ــ 3 يونيو كان ملحنا ومايسترو نمسـاوي وهو الأشهر والذي قدم روعته المعزوفة فالز البلو دانوب كما قدم أيضا الأرملة الطروب http://ar.wikipedia.org ينظر :

[15] – فتحية كحلوش ،بلاغة المكان ، قراءة في مكانية النص الشعري ، الانتشار العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 2008، ص 65.

[16] – حسن البحراوي ، بنية الشكل الروائي، ص 38 .

[17] – الدانوب الرمادي ، ص31.

[18] – أمبرتو ايكو، حاشية على اسم الوردة ، آليات الكتابة ، تر : سعيد بنكراد، منشورات علامـات ، المغـرب ، د ط، 2007، ،ص 20 .

*المكان المتجمر،هو المكان الدي يظل مشتعلا كالجمرة تحت طبقة خفيفة من" السكن"انظر: شاكر النابلسي ، جماليات المكان،ص :306.

[19] – الدانوب الرمادي ، ص 9 .

[20] – المصدر نفسه ،ص : ن .

[21] – حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي، ص 29 .

[22] – الدانوب الرمادي، ص 30 .

[23] – المصدر نفسه، ص 30 .

[24] – هنري متران ، المكان والمعنى ، ضمن الفضاء الروائي ، تر،عبد الرحيم حزل ،ص136.

[25] – ينظر: حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ص 34.

[26] – المرجع نفسه، ص 36 .

[27] – عبد الصمد زايد ،المكان في الرواية العربية الصورة والدلالة ، كلية الآداب ، منوبة ، دار محمد علي تونس ، ط $_1$ .2003 ، ص:159

[28] – المرجع نفسه ، ص :ن .

[29] – ميشال رايمون ،التعبير عن الفضاء ،ضمن الفضاء الروائي ،تر:عبد الرحيم حزل ، ص:47 .

[30] – صالح إبراهيم ، الفضاء ولغة السرد ، في روايات عبد الرحمن منيف ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغـــرب، بيروت، لبنان ،ط$_1$، 2003، ص54.

[31] – الدانوب الرمادي ،ص32 .

[32] – المصدر نفسه،ص :ن .

[33] – المصدر نفسه، ص:31.

[34] – المصدر نفسه ، ص: ن .

[35] – المصدر نفسه،ص.ن .

[36] – ، حسن نجمي ،شعرية الفضاء ،المتخيل والهوية في الرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغـــرب ، بيروت ، لبنان ،ط1، 2003، ص : 34.

[37] – الدانوب الرمادي ، ص: 31 .

[38] – المصدر السابق ، ص:37 .

[39] – المصدر نفسه ، ص:38 .

[40] – المصدر نفسه، ص:ن .

[41] – المصدر نفسه ، ص: 17 .

[42] – المصدر السابق، ص 17.

[43] – أدونيس،كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، لبنان ، ط$_1$، 1989 ،ص 165.

[44] – الدانوب الرمادي، ص،38.

[45] – ميشال رايمون ،التعبير عن الفضاء ،ضمن الفضاء الروائي ،تر:عبد الرحيم حزل ، ص:57 .

[46] – الدانوب الرمادي، ص32.